الفصل الرابع:
الإخوان وحماس

التيار الإسلامي والنظم العربية: حماس والإخوان

المثقفون والإخوان المسلمون في مصر

محاولة تفسير الأزمة بين السلطة والإخوان

الاشتباك بين حماس والإخوان في مصر

(١)

التيار الإسلامي والنظم العربية:

حماس والإخوان

شهدت الساحة العربية تقدم الإخوان المسلمين في مصر في الانتخابات البرلمانية ٢٠٠٥ على نحو غير متوقع، بل إن خمس عدد مقاعد البرلمان التي حصل عليها الإخوان كان يمكن أن يتضاعف لو جرت الانتخابات بغير ما شابها من ظروف وتعقيدات، بما يكشف أن للإخوان رصيد يتجاوز بمراحل قرار حظر الجماعة وحظر نشاطاتها الحزبية والسياسية. على الجانب الآخر، تقدمت حركة حماس في الانتخابات البلدية الفلسطينية، واكتسحت الساحة على حساب حركة فتح التي تمزق شملها بعد عقود من قيادتها للحركة السياسية والأعمال المسلحة في الساحة الفلسطينية البالغة التعقيد.

ومن المفيد في رصد هذه الظواهر السياسية أن نحدد موقع هاتين الحركتين في إطار النظام السياسي المصري والفلسطيني، وتجربة انصهار التيار الإسلامي في النظم السياسية بعد تجاوز مرحلة عداء التيار الإسلامي لهذه النظم، وأن يتم تحديد ذلك على ضوء خمس عوامل أساسية هي: موقف الحركة من النظام، وموقف النظام منها، وموقف الحركتين من إسرائيل، المحك الأساسي في التيار الإسلامي عموما والعربي خصوصا، وموقف الغرب من الحركتين ودورهما، موقف الشارع من الحركتين، وأخيرا علاقة الحركتين على المستوى الاستراتيجي.

يسبق دراسة هذه العوامل الخمسة ملاحظتان تمهيديتان:

الملاحظة الأولى، هي أن حماس تعمل في بيئة سياسية قاسية، لأنها حركة سياسية عسكرية، أي أنها تقوم بالمقاومة كما تحاول أن تكون قوة سياسية فاعلة في الساحة الفلسطينية. ولذلك، فإن الوجه السياسي والعسكري في عملها - وهو سر شعبيتها -

هو الذي يتجه إلى الجهود الرسمية والخارجية لفصل العسكري عن السياسي، وهو نفسه الذي يجرى مع حزب الله رغم وضوح الحقيقة، وهي أن حماس وحزب الله يعملان في ظروف غير عادية، أخطرها احتلال إسرائيل وقمعها للأراضي اللبنانية والفلسطينية.

وإذا كان حزب الله قد نجح في تأكيد صفته السياسية في البرلمان والحكومة وقوته السياسية في الشارع اللبناني، بل والعربي والإسلامي على الساحة، فإن سر قوته هو قدراته العسكرية التي تسببت في تلقين إسرائيل درساً في الجدية العربية والإسلامية وندية التعامل رغم تفاوت القدرات قدر المسافة بين السماء والأرض، هي نفسها التي استعدت عليه عدوه الأساسي إسرائيل والغرب.

الملاحظة الثانية، هي أن حماس وحزب الله والإخوان على خط واحد، وهو احتضان المرجعية الدينية الإسلامية، والاعتقاد بأن العدو واحد، وأن النظم السياسية في الدول الثلاث تحكمها اعتبارات تجعل موقف حكوماتها من هذه الحركات الثلاث متباينة، لكنها عموما غير ودية، ليس فقط باعتبار هذه الحركة قوة سياسية منافسة بشكل خطير لسلطة النظام السياسي القائم، ولكن - وبأشكال متفاوتة - بسبب موقفها من إسرائيل والغرب أيضا، فاختلفت أسباب الهجوم على هذه الحركات في الدول الثلاثة بقدر اختلاف الظروف التاريخية لهذه الحركات، والقضايا الملحة التي تواجهها أو التي تتطرحها. وتفرد الإخوان في مصر بتقدمهم وحصارهم في قضية الديمقراطية، وموقفهم من الآخر المسيحي، وهو عامل ليس قائماً في فلسطين ولبنان لسبب بسيط، وهو أن حماس وحزب الله حركات مقاومة للاحتلال الإسرائيلي، بينما ظلت جماعة الإخوان في مصر جماعة سياسية مدنية اجتماعية غير مسلحة.

ومن واجب حركات المقاومة استقطاب كافة القوى الوطنية والتركيز على العدو، وليس على اختلاف الملل والنحل الدينية، وكان ذلك هو طابع حزب الله الذي نشأ في بيئة تعددية وثقافة ديموقراطية، وحماس التي نشأت في بيئة علمانية موازية لمنظمة التحرير التي يهمها الأرض وإقامة الدولة، ولا يهمها ديانة المساندين لها، ولذلك التف المسيحيون حول حزب الله في لبنان كرأس حربة في حركة المقاومة في العقود الماضية، كما التف المسيحيون حول منظمة التحرير. ويجمع بين القوى الثلاثة في الواقع خلو سجلها من العداء

للمسيحين أو اليهود، وتمييزهم جميعا بين اليهود والحركة السياسية الصهيونية. وسوف نفرد لعلاقة حزب الله بالنظام السياسي في لبنان مقالا آخر بسبب خصوصية الحزب ووضعه في الساحة اللبنانية.

أما العوامل الخمسة التي يقتضي التحليل دراسة هذه الحركات على أساسها، أولها موقع الحركتين في النظام المصري والفلسطيني.

يختلف موقف حماس من السلطة عن موقف الإخوان المسلمين من النظام في مصر، لأن حماس لا تعترف باتفاقات أوسلو التي تعتبر الأساس القانوني لقيام السلطة الفلسطينية. ومع ذلك فإن حماس تتجه إلى التوافق مع السلطة لاعتبارات عملية. أما موقف السلطة من حماس، فهو قبولها في النظام السياسي مع التعاطف في تمسكها بسلاحها، وإن كانت حماس قد أصبحت منافساً قوياً لفتح التي تشكل السلطة الفلسطينية.

ونأمل أن لا يختلط التنافس لاعتبارات سياسية مشروعة بالضغط الذي تمارسه إسرائيل على السلطة حتى تنزع سلاح حماس وبقية الفصائل الفلسطينية.

وعلى أية حال، فإن هناك قاعدة مشتركة بين حماس والسلطة، وهي النضال من أجل إزالة الاحتلال ومقاومة الاستيطان، وإقامة الدولة، كل بوسائله المناسبة، رغم أن أبو مازن يعتقد أن الكفاح المسلح يؤدى إلى نتائج عكسية.

أما موقف الإخوان المسلمين من السلطة في مصر، فهو الضغط لتوسيع دائرة الحرية والمشاركة السياسية، وتطبيع العلاقات بين الإخوان وبين البيئة السياسية المصرية، التي تأثر بعضها بالأفكار السياسية عن الإخوان التي روجتها الحكومة منذ عام ١٩٤٨ بعد اغتيال النقراشي باشا رئيس الوزراء، ثم الصدام بين الإخوان والنظام في حادث المنشية عام ١٩٥٤، وما أعقبه من أحكام قاسية بالإعدام لزعماء الإخوان.

أما موقف الحكومة من الإخوان، فهو موقف متردد ظاهرة الحظر والتكيل، وباطنه استشعار القاعدة الشعبية العريضة التي يتحرك عليها الإخوان، والتى ظهرت خلال الانتخابات البرلمانية ٢٠٠٥، وهذا الموقف المتردد يجعل وجود الإخوان على الساحة السياسية المصرية تحدى للحكومة أو بموافقتها طوعاً أو كرهاً، وبوجود عامل أمريكى أو بغيره، ولكن الحكومة المصرية تعتقد أنه لا فرق بين الإخوان والمتطرفين في الحركات الإسلامية.

ومن الواضح أن هناك فرق كبير بين الإخوان كقوة سياسية في ظروف عادية، وبين حركة حماس كحركة تحرير ضد الاحتلال الإسرائيلي، وفي نفس الوقت تريد أن تكون جزء من النظام السياسي الفلسطيني.

والقاعدة التي يرتكز عليها الإخوان وحماس هي المرجعية الدينية الإسلامية، والاتفاق في الرؤية السياسية بالنسبة لإسرائيل، مع فارق واحد وهو أن حماس مستهدفة من إسرائيل وتخضع للملاحقة والاغتيال، أما الإخوان فهم في مأمن من الملاحقة الإسرائيلية، ولكنهم ليسوا في مأمن من الملاحقة المصرية، وهي ملاحقة أقصاها الاعتقال أو السجن ولم تصل إلى حد الاغتيال، وربما يؤدي وجود حماس والإخوان في الحكم إلى التآلف والتعارف بين عناصر النظام السياسي في البلدين.

أما موقف الشارع في البلدين من الحركتين فيجب أن نميز بين موقف المثقفين العلمانيين والأحزاب اليسارية الليبرالية في مصر، وبين موقف الرجل العادي. فقد أظهر المثقفون وبعض الأقباط عداءاً شديداً للإخوان المسلمين، بينما رحب بهم رجل الشارع العادي. أما حماس فلم تلق هجوماً من طوائف الشعب الفلسطيني.

ويرجع السبب في قبول حماس والإخوان من الرجل العادي هو العمل الاجتماعي المباشر والأعمال الخيرية، بالإضافة إلى المرجعية الدينية التي تجمع عليها المجتمعات الفلسطينية والمصرية.

أما العامل الثالث، فهو موقف الغرب من الحركتين ومن دورهما. فإذا كان الغرب يرفض حماس رفضاً قاطعاً انسجاماً مع الموقف الأمريكي والإسرائيلي، ووضع حماس على القائمة السوداء الخاصة بالمنظمات الإرهابية، فإن الغرب لم يعلن عدائه بعد للإخوان المسلمين، بل يمكن القول أنه شجع الإخوان على الدخول في التجربة السياسية، وقد يكون ذلك جزءا من محاولة الغرب توسيع قاعدة المشاركة السياسية في مصر. ومن الواضح أن سبب التمييز في الموقف الغربي من حماس والإخوان ليس هو الموقف الغربي من دورهما في النظام السياسي الفلسطيني والمصري، ولكن العامل الإسرائيلي هو الذي دفع الغرب إلى معاداة حماس.

وأخيراً، فإن العلاقة بين الحركتين على المستوى الاستراتيجي تدخل في إطار موقف التيار الإسلامي عموماً من اسرائيل والغرب والنظم السياسية القائمة، على أساس أن التيار الإسلامي يختلف عن التيار الإسلامي الجهادي، ونحن نقصد طبعا التيار السياسي، ولذلك لا يستبعد التساند بين الحركتين حماس والإخوان، كما لا يستبعد أن تستعدي إسرائيل مصر ضد الإخوان أيضا، حتى لو كان ذلك يتناقض مع الموقف الأمريكي من الإخوان، خاصة بعد أن أعلن المرشد العام في مصر أن المحرقة خرافة، على غرار ما أعلنه الرئيس الإيراني مؤخرا حول إسرائيل والمحرقة اليهودية في ألمانيا.

والجدير بالذكر أن هناك اعتقادا غذاه الغرب في العالم العربي بأن حماس والإخوان لا يبعدان كثيراً عن القاعدة، رغم إعلان الحركتين عداءهما للقاعدة، غير أن المسيحيين في إسرائيل قد طلبوا من حماس بالفعل حمايتهم من هجمات القاعدة ضد إسرائيل في المستقبل، بسبب عجز الحكومة عن حمايتهم، ولاعتقادهم بأن عند حماس قبولا لدى القاعدة.

وعلى أية حال، فإن التقارب بين حماس والإخوان قد دفع البعض إلى الافتراض بأن الإخوان هم الجذع الرئيسي للتيار الإسلامي، وأن حماس هي أحد فروع هذا الجذع. فإذا كانت حماس والإخوان يمثلان التيار الإسلامي الغالب في المجتمعات المصرية والفلسطينية، فلماذا لم يهاجم المسيحيون الفلسطينيون حماس، بل رحبوا بها، بينما هاجم أقباط مصر الإخوان، وهدد أحدهم بأنه لا يتصور وجود الإخوان أصلا على قيد الحياة؟

يبدو أن البيئة الفلسطينية قد تعلمت التسامح، لأن عدوهم هو إسرائيل. ولعلنا نلاحظ القس عطا الله راعي الكنيسة الأرثوذكسية في بيت لحم الذي انتخبه الكرادلة بالاجماع بعد فضيحة قيام أحد القساوسة اليونانيين ببيع أراضي لليهود، وتدخل تصريحات القس عطاالله على أنه أشد وطنية من بعض الزعماء السياسين في فلسطين.

أما في مصر، فإن تخوف الأقباط يقوم على افتراض أن وجود الإخوان في الساحة السياسية، وربما في السلطة بعد ذلك، يمكن أن يحول مصر إلى دولة دينية، فتتكرر تجربة التيار الإسلامي في السودان وعلاقته المتوترة بالجنوب، وهذا وهم كبير، لأن الدولة الإسلامية حتى في أكثر عصورها ازدهارا كانت تعترف بالخصوصية الثقافية والدينية

لكل الأقليات الدينية، على أساس أن الأديان الثلاثة السماوية تتجاور ولا تتناسخ، أي لا ينسخ بعضها بعضا.

تلك تجربة جديدة في مصر وفلسطين بعد أن ضنت الظروف في الجزائر على تمكين التيار الإسلامي في الحكم عام ١٩٩٢، وبعد أن فشل التيار الإسلامي في السودان لاعتبارات سودانية ودولية. وعلى أية حال، فإن التيار الإسلامي في مصر وفلسطين هو جزء من النظام السياسي وليس قائدا لهذا النظام.